فَصْل في ذِكْر أيّوب عليه السَّلام[١]

قال مقاتل: ذكره الله في خمسة مواضع. وأيوب اسم أعجمي، واختلفوا في نسبه، والمشهور أنه أيوب بن أموص بن رزاح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ذكره جدي رحمه الله في «التبصرة»، قال: وأبوه ممن آمن بالخليل عليه السلام لما ألقي في النار، قال: وأمه بنت لوط عليه السلام[٢].

وكان أيوب في زمان يعقوب، وتزوج ابنة يعقوب واسمها رحمة، وقيل: دينا، وقيل: ليًّا، وقيل: إنما تزوج أيوب رحمة بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب.

وقال الكلبي: أيوب بن أموص بن رازح ـ بتقديم الألف على الزاي ـ ابن العيص بن أموص بن العيص بن إسحاق عليه السلام. وقال قتادة: أيوب بن رزاح بن دعوابيل بن العيص.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه قال: كان أيوب رجلاً من الروم، وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن روم بن عيص بن إسحاق عليه السلام[٣].

واختلفوا في زمانه:

فحكينا عن جدي في «التبصرة» أنه كان في زمان يعقوب.

وقال مجاهد: لم يكن نبيّاً في زمان يعقوب وإنما نبّىء بعد يوسف.

وقال مقاتل: كان بعد سليمان. وقيل: بعد يوسف، والأول أشهر وأثبت.

قلت: وذكر الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في «تاريخ نيسابور» عن قتيبة بن سعيد قال: سمعتُ عبد الله بن لهيعة، وسأله رجل: هل ورد خراسانَ نبيٌّ، قال: نعم أيوب المبتلى ورد كورةَ بُخارى واستضافهم فأضافوه، فدعا لهم بالبركة فهي مباركة.

قلت: والعجب من رواية الحاكم مثلَ هذا عن ابن لهيعة، وقد علم أنه ضعيف. ولم

---

(١) انظر قصته في: الزهد لأحمد ٥٤، ١١٣، وتفسير الطبري ١٦/ ٣٣٣، وتاريخه ١/ ٣٢٢، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٧٢، و«عرائس المجالس» ص ١٥٥، و«تفسير الثعلبي» ٦/ ٢٩٤، و«تاريخ دمشق» ٣/ ٢٤٩ (مخطوط)، و«التبصرة» ١/ ١٩١، و«زاد المسير» ٥/ ٣٧٥، و«المنتظم» ١/ ٣٢٠، و«البداية والنهاية» ١/ ٥٠٦.

(٢) «التبصرة» ١/ ١٩١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٥٥.

يثبت أن نبياً من الأنبياء دخل العجم، وخصوصاً أيوب، فإنه ما فارق الشام.

وقال الكلبي: كانت منازله البَثَنِيَّةُ من أرض الشام والجابِيَة وكورة دمشق، فكان الجميع له، ومقامه بقرية تعرف بدير أيوب، وقبره بها وإلى هلم جراً. وكان غنيّاً كثير الضيافة على مذهب إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان له ثلاثة عشر ولداً، وله أصنافٌ من الأموال والإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وكان له خمس مئة فدان يتبعها خمس مئة عبد، لكل عبد امرأة ومال وولد، وكان برّاً رحيماً تقيّاً يكفل الأرامل واليتامى ويحمل المنقطعين، وما كان يشبع حتى يشبع الجائع، ولا يكتسي حتى يكسوَ العاري، وكان قد امتنع من عدوِّ الله إبليس أن يصيبَ منه ما يصيبُ من أهل الغنى والثروة بالغِرَّةِ والغفلة، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدَّقوه: رجلٌ من أهل اليمن يقال له: أليفز، ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما: بلدد، والآخر: صافر[1].

فصل في تلخيص قصته

ذكر علماء السير كابن إسحاق ووهب والسدي وعطاء فيما رووه عن ابن عباس وغيره، دخل حديث بعضهم في حديث بعض، وحكاه الثعلبي عن وهب بن منبه قالوا: إن لجبريل من الله مقاماً ليس لأحد من الملائكة في القربة والفضيلة مثله، وإنَّ جبريل هو الذي يتلقى الكلام من الله تعالى، فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقَّاه جبريل، ثم يتلقاه ميكائيل ثم الملائكة المقربون، فيشيع ذلك في الملائكة الحافِّين من حول العرش، ثم ينزل إلى سماء سماءٍ، ثم تهبط به الملائكة إلى الأرض، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السماوات يقفُ فيهنَّ حيث يشاء، ومن هناك وصل إلى الجنَّة حتى أغوى آدم، فلم يزل يصعدُ ويتردَّد إلى السماء حتى رُفِعَ عيسى عليه السلام فَحُجِبَ من أربع سماوات، فكان يصعد في ثلاث حتى بُعِثَ نبينا ﷺ، فحجب عن الثلاث الباقيات، فهو وجنوده محجوبون عن السماوات إلى يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[الحجر: ١٨].

وكذا قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: وكان إبليس لا يحجب عن

(١) هم في الكتاب المقدس سفر أيوب الإصحاح الثاني: أليفاز التيماني وبلدد الشوحي وصوفر النعماني.

السماوات، قال: وهذا هو خلاف قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[البقرة: ٣٨] وكان إهباطَ سخطٍ، وآدم لم يعد إلى الجنة، وكذا إبليس لا يعود إلى السماوات، ويحتمل أن الشياطين الذين يسترقون السمعَ أخبروه بثناء الملائكة على أيوب[١].

قالوا: ولما سمع إبليس أنَّ الله ذكر أيوب وأثنى عليه أدركه البغي والحسد، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه وقال: يا ربِّ سلِّطني على أيوب، فقال الله: قد سلطتك على ماله وولده ولم أُسَلِّطْكَ على جسده.

وقد روى هذا المعنى عبد الله بن أحمد بن حنبل في «كتاب الزهد» عن أبيه عن كثير ابن هشام عن حماد بن سلمة بإسناده عن ابن عباس وذكره موقوفاً[٢].

وقد روى السُّدي ووهب أن إبليس قال: إلهي إني نظرتُ في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثم لم تجرّبْهُ بشدةٍ ولا بلاء، وأنا زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرنَّ بك، فقال الله تعالى: اذهب فقد سلطتك على ماله. فجمع عفاريته وشياطينه وقال لهم: ما عندكم من القوة فإني قد سُلِّطت على مال أيوب، وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فأروني سلطانكم، فصار بعضهم ناراً وبعضهم ماء وحالوا ما بين المشرق والمغرب[٣].

فإن قيل: فكيف قال الله تعالى: اذهب فقد سلَّطتك عليه، وتسليط العدوِّ على الوليّ غير لائقٍ بالحكمة، وخصوصاً إذا لم يفعل فعلاً يستوجب به العقوبة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه نزل به مريض فنظر إليه فاستقذره وأبعده عن فنائه، فابتلاه الله بمثل مرضه، قاله قتادة.

والثاني: لأنه وقف ببابه سائل فقير فرده خائباً، فقال له الله تعالى: خوَّلتك وأعطيتك ووسعت عليك وترد السائل خائباً؟! لأبتلينَّك، قاله ابن أبي نجيح.

---

(١) «التبصرة» ١/ ١٩١.

(٢) لم نقف عليه في المطبوع من كتاب «الزهد».

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٧٠، و«عرائس المجالس» ١٥٦.

والثالث: أنه استغاث به مظلوم فلم يساعده على ظالمه فابتلاه الله، قاله ابن عباس.

والرابع: لأنه كان في زمانه ملك ظالم أقطعه أرضاً ترعى خيلُهُ فيها، فدخل العلماءُ على الملك فأنكروا عليه ظلمه إلا أيوب، فإنه لم ينهه عن الظلم لأجل مرعى دوابّه، فأوحى الله إليه: تركتَ إنكارك على الظالم من أجل مرعى دوابّك؟! لأسلِّطنَّ عليك عدوَّك، ولأُطيلنَّ عذابك، قاله الليث بن سعد.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» أن الواقعة كانت بمصر، فقال: قال أبو إدريس الخَولاني: أجدَبَ الشام فكتب فرعون مصر إلى أيوب أنْ هلُمَّ إلينا فإن لك عندنا سعةً، فأقبل بخيله وَرَجِلِهِ وبنيه وماشيته، فأقطعه أرضاً، وكان نبيُّ ذلك الزمان شعيباً عليه السلام، فدخل شعيب على فرعون ووعظه وقال: يا فرعون أما تخاف أنْ يغضبَ الله غضبةً تغضبُ لها السماوات والأرض والجبال والبحار؟! وكان أيوب حاضراً فسكت، فلما خرج من عنده أوحى الله إلى أيوب: سكتَّ عن فرعون لأجل أرضه، استعدَّ للبلاء. قال: يا إلهي، فديني؟ قال: أُسَلِّمُهُ لكَ، قال: فما أُبالي[1].

وروى الحافظ حديثاً عن عقبة بن عامر قال: قال النبيُّ ﷺ: «أَوْحَى الله لأَيُّوبَ: تَدرِي ما جرمُك حتى ابتَليتُكَ؟ قال: لا، قال: إنَّك دَخَلتَ على فِرعَونَ فداهَنْتَهُ في كلمتَين»[2].

قلت: ولا يصحُّ هذا الحديثُ مرفوعاً وإنما هو موقوف؛ وأيوب لم يفارق الشام ولا دخل مِصْر باتفاق الرواة.

والخامس: أن إبليس قال: يا إلهي لو سلَّطتني عليه لكفَرَ بك وأطاعني، فسلَّطه عليه ليظهر صبره وكَذِبَ إبليس، قاله مقاتل.

قال وهب والسُّدي وغيرهما: ثم إن إبليس فرَّق عفاريته في ماله، فأرسل بعضهم إلى إبله، فجاؤوها وهي في مباركها، فلم تشعر الرعاة حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ منه أرواح السَّموم، لا يدنو منه أحدٌ إلا احترق، فلم يزل يحرقها

(١) «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٠.

(٢) «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٠.

حتى أتى على آخرها، فلما فرغ منها جاءه إبليس في صورة راعٍ من رعاتها، وأيوب قائم يصلي فقال: يا أيوب هل تدري ما صنع ربّك الذي تعبده بإبلك ورعاتها؟ قال: ما صنع؟ قال: أرسل عليها ناراً من السماء فأحرقتها ورعاتها، وقد عجب الناس من ذلك فمن قائل يقول: ما كان أيوب يعبدُ شيئاً وما كان إلا في غرور، ومن قائل يقول: لو كان له إله لدعاه، ولو كان له عنده قدر لحماه. فقال أيوب: الحمد لله حين أعطى، وله الحمد حين أخذ، عرياناً دخلتُ إلى الدنيا، وعرياناً أَخرجُ منها، ولو كان فيك أيها العبد خير لأَخذَ روحكَ مع الأرواح فأجرى فيك [وصيَّرك شهيداً مع الشهداء] لكنه علم منك شرّاً فأخَّرك. فرجع إبليس خائباً خاسئاً ذليلاً وقال لأعوانه: ما عندكم من القوة؟ قالوا: مرنا بما شئت، فأرسل بعضهم إلى الغنم وبعضهم إلى البقر وإلى الخيل، ففعلوا بها مثل ما فعلوا بالإبل، وجاء إلى أيوب في صورة راعٍ فذكر له مثل ذلك، فردَّ عليه مثل ذلك الجواب[1].

فلما رأى أنه لا يلتفت إلى المال سأل الله أن يسلطه على ولده وقال: فتنةُ الولدِ أعظم لأن المال يعودُ، فسلَّطه على ولده، فجاء إليهم وهم في قصرهم، فزلزله عليهم، فوقعت الحيطان والخشب عليهم، فشدخهم، ومثَّل بهم، وقلب القصرَ عليهم، ثم انطلق إلى أيوب في صورة معلمهم، وقد لطخ وجهه بالدم، وهو يبكي وينوح ويقول: يا أيوب، لو رأيت أولادَك وما حلَّ بهم من البلاء ـ ووصفَ ذلك ـ لأحزنك وساءك، ولم يزل ينوح ويحزن حتى بكى أيوب وحثا التراب على رأسه، فاغتنم إبليس الفرصةَ وصعد إلى الله تعالى. ثم إن أيوب ندم واستغفر، فصعدت الملائكة إلى الله تعالى فأخبرته بندمه وتوبته فرجع إبليس خاسئاً.

وقال مجاهد: لم يبكِ أيوب وإنما أنَّ أنةً. وقال وهْب: ولما قال لأيوب ما قال، قال: لو كان فيك خير لهلكت معهم، ثم عرفه فقال: اغرب لعنك الله.

فحينئذ سأل إبليس أن يسلّطه على جسده، فسلَّطه على جسده وقال: لا سلطانَ لك على قلبه ولسانه وعقله. فأتاه وهو ساجد فنفخ في منخريه نفخةً أشعل منها جسده،

(١) انظر تفسير الطبري ١٦/ ٣٣٦، و«عرائس المجالس» ص ١٥٦، وما بين معكوفين منه.

وصار من قَرْنه[١] إلى قدمه أمثال الثآليل مثل أليات الغنم، ووقعت فيه حكةٌ لا يملكها، فحكَّها بأظفاره حتى سقطت، ثم بالحجارة والمسوح حتى تقطَّع وأنتن.

وقال مجاهد: أول من أصابه الجدريّ في الدنيا أيوب.

وقال وهب: فأخرجه أهل القرية فألقوه على كناسةٍ، وبنوا عليه عريشاً، ورفضه الناس كلُّهم ولم يبقَ من يتردَّدُ إليه سوى زوجته رحمة، كانت تختلفُ إليه بما يصلحه، ولم يبق منه إلا اللسانُ للذكر والقلبُ للمعرفة، وكان تُرَى عروقه وأمعاؤه وعظامه من وراء جلده.

فإن قيل: فما الحكمة في ابتلائه بالدود؟ فالجواب: لأن المريضَ الذي أبعده عن بابه كان به هذا المرض، فاستقذره، فابتلي بمثل ذلك.

فإن قيل: فلم ابتلاه أولاً بأخذ المال ثم بالولد ثم بالنفس؟ فالجواب: لأن المال وقاية الولد، والولد وقاية النفس، والنفس وقاية القلب.

وقال وهب: ولما رأى أولئك النفر الثلاثة[٢] حاله هجروه واتهموه وجاؤوا إليه فأنَّبوه ولاموه، وقالوا: تبْ إلى الله فقد أذنبتَ ذنباً عظيماً، وكان معهم فتى حديث السن، وكانوا هم كهولاً، فقال الفتى: أيها الكهول، لقد كان لأيوب عليكم من الحقوق ما يوجب ترك كلامكم له، فهل تدرون حرمةَ من انتهكتم ومن الذي اتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب صفوة الله وخيرته من خلقه؟ فإن كان ما نزل به من البلاء هو الذي نَقَصَ منزلته عندكم فإن الله يبتلي الصدّيقين والنبيين والشهداءَ والصالحين ليكونوا أئمة للصابرين وعظةً للعابدين، وليس ذلك لسخطه عليهم ولا لهوانهم عليه، ولكنها كرامة أكرمهم بها، وقد كان الواجب أن تساعدوه وترحموه وتبكوا معه لا أن تعيّروه وتوبخوه. فبكى أيوب وقال: إن الله يزرع الحكمة في قلب من يشاء وليستْ الحكمة بكبر السنِّ وطول التجربة.

ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال: أتيتموني مؤنبين[٣] ظالمين مُبَكِّتين، لقد أعجبتكم نفوسكم وظننتم أنكم ناجون من البلاء، تالله لقد اعتديتم وجُرتم، ولو أنصفتم لوجدتم

(١) القرن: جانب الرأس، وانظر عرائس المجالس ١٥٨.

(٢) يعني الثلاثة الذين آمنوا به، وقد مرَّ ذكرهم في الصفحة ٨.

(٣) في (ل) و(ب): مؤمنين، والمثبت من (ط).

لكم ذنوباً سترها الله عليكم بالعافية التي ألبسكم، ولقد كنتم فيما مضى توقرونني وتسمعون كلامي وتعرفون حقي، فأصبحتم اليوم أشدَّ عليَّ من مصيبتي، وذكر كلاماً طويلاً، ثم أعرض عنهم وسجد وقال: إلهي لأيِّ شيء خلقتني؟ ليتك لمّا كرهتني لم تخلقني، يا ليتني كنت حيضة، يا ليتني كنت نسياً منسياً، ويا ليتني لم تلدني أمي، وذكر الثعلبي عن وهب كلاماً طويلاً أعرضت عنه لأن فيه نوعَ اعتراضٍ.

فصل في المدة التي أقام فيها في البلاء

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنها كانت سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، قاله ابن عباس وعامة العلماء.

والثاني: ثلاث سنين، قاله وهب.

والثالث: ثماني عشرة سنة، قاله الربيع بن أنس. قال جدي في «التبصرة»: وقد رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ[1]. والأول أشهر لوجهين:

أحدهما: لما ذكر الحسن البصري، فإنه قال: أيوب: تنعمت سبع سنين فابتُليت سبع سنين.

والثاني: أنَّ المريض الذي وقف ببابه وردَّه أقام ببابه سبع ساعات فعوقب سبع سنين، وقال الحسن: مكث أيوب على الكُناسة سبع سنين، وكان يأخذ الدودة من الأرض إذا سقطت ويعيدها إلى جسده ويقول: كلي من رزق ربك، اللهم إنْ كان هذا رضاك فشدِّدْ، وإن كان من سخطك فاغفر.

فصل في سبب سؤاله العافية

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه اشتهى إداماً فلم يقدر عليه حتى باعت امرأته شعرها، أو قرناً من

(١) «التبصرة» ١/ ١٩٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ١٠٩، والثعلبي في عرائس المجالس ١٦٢، وانظر الدر المنثور ٤/ ٣٣٠، قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٨٩: رفع هذا الحديث غريب جداً.

شعرها، واشترت له ما طلب، فسبقها إبليس إليه وقال: قد وجدتُ امرأتك مع رجل، وقد قطع شعرها فحينئذ قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[الأنبياء:٨٣]، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن الله أنساه الدعاء مع كثرة الذكر، فلما انقضى زمان البلاء ألهمه الله الدعاء، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن نفراً من بني إسرائيل مروا به فقال بعضهم: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعندها دعا، قاله نوف البكالي.

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان له أخوان فأتياه يوماً فوجدا منه رائحة منكرة فقالا: لو علم الله من هذا خيراً ما بلغ به هذا، فما سمع شيئاً أشدَّ عليه من ذلك فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبتْ ليلة وأنا شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ـ وهما يسمعان ـ اللهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقني، ثم سجد وقال: اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي فكشف ما به.

والرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلةٍ وقال: قولي له: ليذبحها وقد برأ، فجاءته وقالت: لقيني شيخ من صفته كذا وكذا وذكر كذا وكذا، فعرفه وقال: كدتِ أن تهلكيني، لئن فرَّجَ الله عنِّي لأجلدنك مئة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله، ثم طردها عنه وبقي وحيداً ليس معه معين فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله الحسن.

والخامس: أن الله أوحى إليه في عنفوان شبابه: إني مبتليك، فقال: يا رب وأين يكون قلبي؟ قال: عندي، قال: افعلْ ما شئت، فلما ابتلاه قال: إني معافيك، فقال: وأين يكون قلبي؟ قال: عندك، قال ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله إبراهيم بن شيبان.

والسادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً فخاف هجران ربه.

والسابع: أن الدود أكل جميع جسده، فلما دبَّ إلى قلبه خاف فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله مقاتل، وكان اثني عشر ألف دودة.

قال جدي رحمه الله في هذا المعنى: قال بلسان الحال: يا ربِّ قلبي هو الوكيل المنفق أموالَ الصبر، فإذا قضي عليه لم يبق للضيف قوت.

وقال ابن عباس: أكل الدودُ جميعَ جسد أيوب، فلما لم يبق شيءٌ سلَّط الله الدودَ بعضه على بعض فأكل بعضهُ بعضاً حتى بقيت دودتان، فجاعتا فأكلت الواحدة الأخرى، وبقيت واحدة فجاعت فدبَّتْ إلى قلبه لتنقره، فقال أيوب: إلهي إن فقدت حلاوة ذكرك من قلبي لم يهن عليَّ ما ابتُليت به ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[1].

والثامن: أن جبريل جاءه فقال: يا أيوب، لا تقدر أن تصبر معه، فإن بلاياه في خزائنه كثيرة، ومتى لم تشكُ إليه لا يرفع عنك البلاء، فاعترف بالعجز فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله ابن نجيح.

والتاسع: أن دودة عضَّته فآلمته ألماً زاد على جميع ما قاسى، فبكى فرحمه الله، قاله مقاتل.

والعاشر: أن زوجته مرضت فتأخرت عنه أياماً، فلم يبق له من يقوم بأمره فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ قاله مقاتل بن حيان.

وقال الجنيد: عرَّفه فاقة السؤال ليمنَّ عليه بكرم النوال.

وقال مجاهد: أوحى الله إليه: لولا أني أفرغتُ مكانَ كلِّ شعرة منك صبراً لما صبرتَ[2].

فإن قيل: فلم لم يدعُ أوَّلَ ما نزل به البلاء؟ فالجواب من وجهين، أحدهما: أنه علم أمرَ الله فيه ولا تصرُّفَ للعبد مع مولاه.

والثاني: أنه أراد مضاعفة الثواب فلم يسأل كَشْفَ البلاء ليأخذ منه نصيباً.

فإن قيل: فكيف قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ﴾[ص: ٤١] والشيطان لا يمس؟ فالجواب من وجهين أحدهما: أنه لما كان الشيطان هو السبب فيما أصابه أضيف إليه.

والثاني: أنه ما كان يحسن به أن يقول مسَّني الله، فاستعمل الأدب مع الله، وإن كان ذلك بقضائه وقدره.

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[ص: ٤٢] قال ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام

(١) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٥.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٩.

فقال له: قم قائماً، فقال: وكيف أقدر، فقال: قم قائماً، فقام وركض برجله، فنبعت عين ماء، فقال: اغتسلْ فاغتسلَ، ثم نحاه من مكانه وقال: اركضْ فركضَ، فنبعت عينٌ أخرى فقال: اشربْ فشربَ، فذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[ص: ٤٢].

فإن قيل: فقد كان يكفيه ركضة واحدة، قلنا: الركضة الأولى لزوال الضرّ، والثانيةُ دليل الفرح والطرب بالعافية. وإنما خصَّ الرجل بالركض لأن العادة جاريةٌ أن ينبع الماء من تحت الرجل، وكان ذلك معجزةً له.

قلت: وقد احتجَّ محمد بن طاهر المقدسيّ على جواز الرقص بهذه الآية، ولا حجة له فيها لأن ذلك الركض لم يكن رقصاً وإنما كان من باب المعجزات لا من باب الرقص المعتاد.

وقال السُّدي: جاءه جبريل بحلَّةٍ من الجنة فألبسه إياها، وكانت امرأته غائبة فجاءت فلم تعرفه، فقالت له: يا عبد الله أين المبتلى الذي كان هاهنا، لعلَّ الذئاب أكلته؟ فقال لها: أنا أيوب، فقالت: اتَّق الله ولا تسخر بي.

واختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[الأنبياء: ٨٤] على قولين:

أحدهما: ذكره ابن عباس وابن مسعود قالا: كانت امرأته قد ولدت سبع بنين وسبع بنات، فردَّهم الله عليه، وأقامهم من قبورهم، وآتاه مثلهم في الدنيا.

والثاني: أن الله ما أحياهم وإنما آتاه أجورهم في الآخرة، قاله مجاهد وابن الكلبي.

والأول أصح، لأن الله سبحانه وتعالى نصّ عليه، وفيه إظهار شرف أيوب.

وقال ابن عباس ﷺ: ردَّ الله على امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً.

وقال كعب: لما أمطر الله عليه الجراد من الذهب جعل يأخذ الجراد بيده فيجعله في ثوبه فأوحى الله إليه: يا أيوب، أفما شبعت؟ فقال: يا إلهي ومن يشبع من فضلك.

وقد روي مرفوعاً، قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بَينَما أيُّوبُ يَغتَسِلُ عُرياناً خَرَّ عليه جرادٌ مِن ذَهَبٍ، فجَعَلَ أيُّوبُ يَحثُو

في ثَوبِه، فناداه ربُّه تعالى: يا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُن أَغنيتُك عما تَرى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكِنْ لا غِنَى لي عن بَرَكتِكَ» انفرد بإخراجه البخاري[١].

وقال وهب: تطاير الجراد من الماء الذي اغتسل فيه، وكان له أَنْدَران أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله سحابتين فأفرغت إحداها على أندر القمح ذهباً والأخرى [على أندر الشعير] فضة، وتطاير الجراد على الكلِّ وإنما خصَّ الجراد لكثرته[٢].

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[ص: ٤٤] وهو الشِّمراخ، وقيل: الحزمة، من العيدان أو الحشيش ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾[ص: ٤٤] قال ابن عباس: كان قد حلف ليجلدنَّ زوجته مئةَ جلدة، وما كان ذلك يحسن في مقابلة صبرها وما لاقت في خدمته من الشدائد، فأفتاه الله تعالى بذلك.

واختلفوا في سبب يمينه على أقوال: أحدها: حديث السخلة التي جاء بها إليها إبليس، وقد ذكرناه. والثاني: أن إبليس جلس على طريق زوجته كأنه طبيب، فقالت له: يا عبد الله هاهنا رجلٌ مبتلى فهل لك أن تداويه؟ قال: نعم، على شرط أن يقولَ إنني شفيته، فأخبرته بذلك فقال: ذاك الشيطان، لله عليَّ إن شفَاني الله لأجلدنَّكِ مئة جلدة. قاله ابن عباس[٣].

والثالث: أن إبليس لقيها فقال: أنا الذي فعلت بأيوب ما فعلت، وأنا إله الأرض وجميع ما أخذتُ منه بيدي، فانطلقي أريك، ومشى بها غير بعيد ثم سحر بصرها فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها وولدها، فأتت أيوب فأخبرته فقال: لعنه الله، ثم حلف، قاله وهب[٤].

وقال ابن عباس: قال إبليس لجنوده: قد أعياني أيوب، فقالوا: عليك بزوجته، فإنه ما أخرج آدم من الجنة غير امرأته، فجاء إليها فوسوس لها بأنواع الوساوس حتى حلف

(١) أحمد في «مسنده» (٨١٥٩)، والبخاري (٢٧٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٧ وما بين معقوفين زيادة منه، والأندر: البيدر.

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٧.

(٤) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٧.

أيوب ليجلدنها مئة جلدة، فأفتاه الله لطفاً بها فجمع العيدان، وقيل: كانت مئة سنبلة، فضربها ضربة واحدة. وهل ذلك خاصٌّ له أو عام؟ قال ابن عباس: هو عام، وقال مجاهد: هو خاصّ، والأول أصح.

واختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده أو أمته أو زوجته مئة سوط، أو أقل أو أكثر، فأخذ حزمةً وضرب بها، قال أصحابنا: إن أصابه بكلٍّ واحد منها برىء في يمينه، وقال الشافعي ومالك وأحمد: لا يبرأ، وجه قولهم: إن ذلك كان خاصّاً بامرأة أيوب رفقاً بها، وهذا المعنى معدوم في حق غيرها. ولنا: ما كان جائزاً في شرع غيرنا فهو جائزٌ في شرعنا إلا أن يوجد النسخ، ولم يوجد، قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[ص: ٤٤] ولم يصبر حتى قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ فأين صبره؟ فالجواب: أنَّ المذموم هو الشكوى إلى الخلق، أمَّا إلى الخالق فلا. وشكواه إلى الله بما ذكرنا من الأسباب لا يدلُّ على أنه لم يصبر، ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦]، ثم قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف: ١٨ ؛ ٨٣] على أن قوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ قد ذهب بعض العارفين إلى أنه دعاء لا شكوى، وقد أشار إليه أبو القاسم ابن حبيب قال: والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾[الأنبياء: ٧٦] والاستجابة إنما تتعقب الدعاء.

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ وبين قوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[التحريم: ٢].

فالجواب: إنه لم يكن في من تقدَّم من الأمم كفارةُ يمين، وإنما شُرِعَتْ لهذه الأمَّة تخفيفاً عنها، فتأخذ مرةً بالعزيمة ومرة بالرخصة.

وقد روى مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً قال: يجاء يوم القيامة بالمريض فيقول له الله تعالى: ما منعك أن تعبدني؟ فيقول: يا رب، ابتليتني ببلاءٍ شغلني عن عبادتك، فيجاء بأيوب في ضرِّه وبلائه ويقال له: أنت أكثر بلاءً أم هذا؟ فيقول: لا بل هذا، فيقول: إن هذا لم يمنعه ما كان فيه عن عبادتي لحظةً قطُّ.

فصل في ذكر وفاته

واختلفوا في سنِّه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عاش مئةً وستاً وأربعين سنة، قاله ابن عباس، وقال: عاش منها بعدما ذهب عنه البلاء سبعين سنة.

والثاني: ثلاثاً وسبعين سنة، قاله مجاهد. والثالث: ـ وهو الأشهر ـ أنه عاش ثلاثاً وتسعين سنة، ذكره الطبري في «تاريخه» وجدي في «أعمار الأعيان»[١].

قال جدي: وعاش لهذا السن جماعة، منهم أبو أيوب الأنصاري، ومحمود بن الربيع، وسليمان بن صُرَد، والهيثم بن عديٍّ، وأبو الحسن المدائني صاحب التاريخ، ومحمد بن بكَّار، وإدريس بن عبد الكريم، ويونس بن عبد الأعلى، وطِراد الزَّينَبي، وأبو القاسم ابن الحصين، وأبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبو سعد الزُّوزَني وغيرهم[٢].

ودفن أيوب بالشام بالبَثَنِيَّة، وقبره ظاهر بها، وأوصى إلى أخيه حوملِ بن أموص.

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٣٢٤، و«أعمار الأعيان» ص ٨٢.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ٨٢ـ٨٣.